المبحث الخامس
شعر الغربة والحنين

في التاريخ واللغة:

ومن الموضوعات الجديدة التي برزت في الشعر الأندلسي على نحو جديد وبانت شخصيتها على صورة مختلفة، وذلك لتأثير البيئة الأندلسية من نواحيها المختلفة سياسية واجتماعية وطبيعية، فقد تألق هذا الموضوع على نحو فريد في القرن الخامس الهجري، وإن كنا نجد صورة مصغرة له قبل هذا العصر.

لقد أشار عدد من الباحثين إلى جدة هذا الموضوع[1] ويتصل هذان الموضوعان بجذورهما العريقة الموغلة في التاريخ ذلك لأنهما من الغرائز الفطرية في الإنسان، يرتبطان بالعربي منذ أقدم العصور حتى تواترت في ذلك الأمثال واتصلت الأخبار وقد ورد في الأمثال قولهم: "ميلك إلى مولدك من كرم محتدك"، وقولهم: "لا تجفُ أرضاً فيه قوابلك ولا تنس بلداً فيه قبائلك"، وقالت الحكماء: "حنين الرجل إلى وطنه من علامات رشده"[2] وقد حكى ذلك القرآن الكريم إذ رأى الجاحظ أن مما يؤكد حب الأوطان قوله تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم﴾[3] فسوّى بين قتل أنفسهم وبين الخروج من ديارهم، وقال تعالى: ﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾.

وجاء في الحديث الشريف: «حب الوطن من الإيمان»[4] وقد قيل لأعرابي: أتشتاق إلى وطنك؟ قال: كيف لا أشتاق إلى رملة كنت جنين ركامها ورضيع غمامها.[5] ومما قيل: "لولا حب الأوطان لخربت البلدان"[6] وكانت العرب إذا غزت وسافرت حملت معها من تربة بلدها رملاً وعفراً تستنشقه عند نزلة أو زكام أو صداع،[7] وقال إبراهيم بن أدهم ﷺ: ما قاسيت فيما تركت من الدنيا أشد من مفارقة الأوطان،[8] وقد ضربوا الأمثال بالإبل في حنينها فقالوا: "لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين"، وقالوا: "أكرم الإبل أشدها حنيناً إلى أوطانها".[9]

استخدم المعجم العربي ألفاظاً ذات دلالات متقاربة فقد جاء في المحيط: الغرب

---

١ ابن بسام وكتابه الذخيرة، ١١٨.
٢ تمام المتون، ٣٣٠. ٣٣٢.
٣ الحنين إلى الأوطان، ٩.
٤ تمام المتون، ٣٢٩.
٥ الوطن في الأدب العربي، ٤٨.
٦ الحنين إلى الأوطان، ٩.
٧ نفسه، ١٢.
٨ المنازل والديار، ٢١٩.
٩ الحنين إلى الأوطان، ص ٩.

والغربة: النوى والبعد، وجاء في اللسان: غرب أي بعد والتغرب البعد والغربة والغرب النزوح عن الوطن والاغتراب، وتغرب واغترب تغرباً واغتراباً بمعنى واحد.[١] وذلك لأن صيغة (افتعل) تدل ضمن ما تدل من معاني على المطاوعة كما تدل على التصرف، أي الاجتهاد في تحصيل الفعل.[٢]

دواعيه وأسبابه:

وللمعاجم الحديثة تفسيرات لهذا المفهوم، نفسية، واجتماعية، فقد فسر بأنه عاطفة تستولي على المرء فيعيش في قلق وكآبة لشعوره بالبعد عما يهوى أو يرغب فيه.[٣]

وقد تنبه القدماء إلى هذه الظاهرة فألفوا فيها وصنفوا كتباً لعل أقدمها رسالة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) الموسومة: الحنين إلى الأوطان، وقد أفدنا. عما قريب. من نصوص نثرية كثيرة، ساقها الجاحظ في كتابه، وقد تضمن فضلاً عن ذلك مقطعات شعرية كثيرة في هذا المجال.[٤]

ومن هذه الرسائل كتاب أبي الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ) وقد سماه أدب الغرباء وكتاب أسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ) المنازل والديار وهو أوسع هذه الكتب.

ولم يحتفل الباحثون لنتاج الأندلس من هذا الأدب على غزارته وتنوعه وكثرة أدبائه لكننا لا نكاد نقلب النظر في مصدر تاريخي أو مجموع أدبي أو ديوان شعري في عصور الأندلس الطويلة ومدنها وأصقاعها المترامية الأطراف حتى نقع على شواهد وأمثلة كثيرة في هذا الباب، حتى جاء أحمد حاجم محمد فأفرد في الموضوع دراسته، وجعلها في خمسة فصول، الغربة الوطنية، والغربة النفسية، والحنين إلى الوطن، والحنين إلى الأحبة والأهل والإخوان، ثم الطبيعة في شعر الغربة والحنين.[٥]

وأعقبت هذه الدراسة بحوالي عشر سنوات رسالة فاطمة طحطح،[٦] وتناولت الموضوع في ثمانية فصول، مفهوم الغربة والحنين، وقرطبة رمز الحنين، وابن دراج غربة

---

١ القاموس المحيط مادة "غرب" لسان العرب مادة "غرب".

٢ عمدة الصرف، ص ٣٥.

٣ المعجم الأدبي، ١٨٦. وفي معجم علم الاجتماع، ص ٢٠ إن الاغتراب هو الحالة السيكو اجتماعية التي تسيطر على الفرد سيطرة تامة تجعله غريبا، وبعيدا عن واقعه الاجتماعي، ويجد المؤلف صعوبة في وضع تحليل شامل وعام لهذا الاصطلاح لصعوبة وضع أسس فكرية للبحث الاجتماعي، لأن هذا الاصطلاح يدخل في عدة موضوعات إنسانية كعلم الاجتماع والفلسفة السياسية والاجتماعية والتحليل النفساني والفلسفة الوجودية، ويتصل هذا الاصطلاح بظواهر التعصب العنصري، المرض العقلي، الوعي الطبقي، الصراع الصناعي والصراع السياسي...

٤ الرسالة طبعت بتصحيح الشيخ طاهر الجزائري، ط ١، المنار، مصر، ١٣٣٣هـ وهي تقع في ثمانية وثلاثين صفحة وتضمنت أقوالا وحكما وقصصا في موضوعها كما تضمنت على حوالي ثلاثين نصا شعريا بين قطعة وقصيدة.

٥ وهي بعنوان الغربة والحنين في الشعر العربي الأندلسي في حوالي مئتين وخمسين، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، ١٩٨٣.

٦ الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ط جامعة محمد الخامس، المغرب، ١٩٩٣.

الزمان والمكان وفجيعة التحول، وإشكالية الزمن في شعر ابن خفاجة، ورحلة باتجاه الشرق، والبحث عن البديل، والحنين الديني.. والدراسة بمجملها أعطت أبعاداً جديدة للموضوع.

وليس من سبيل للإحاطة في مثل دراستنا بهذا الأدب أو استقصاء ضروبه وأنماطه، ولكن النظرة المتأنية تسلمنا إلى الوقوف على دواعي الغربة والحنين التي كانت تهيج وتحرك مكامن الصبوة ولواعجها.

ويتجلى الشعور بالغربة والحنين إلى الوطن في جملة أسباب منها: الرحلة في طلب العلم، على نحو ما كتب به ابن الفرضي (ت٤٠٣هـ) وهو في طريقه إلى المشرق وكان قد رحل وتغرب حيث يقول:[١]

مضت لي شهور منذ غِبتمْ ثلاثةٌ ... وما خِلتني أبقى. إذا غبتمُ. شهرا
سأستعتب الدّهرَ المفرقَ بيننا ... وهل نافعي إن صرت استعتب الدهرا
وتالله ما فَارقتكم عن قِلى لكم ... ولكنّها الأقدار تَجري كما تُجرى

ومنها الرحلة عن الوطن بسبب الحروب والفتن الداخلية التي حلت بمدن الأندلس وأبرز هذه الفتن التي انعكست آثارها في الشعر الأندلسي، الفتنة القرطبية على نحو ما تعكسه أبيات أبي بكر محمد بن قاسم (اشكهباط) الذي نشأ بقرطبة وساد فيها ثم اضطرته الحال إلى مغادرتها والتجوال في مدن الأندلس ثم في بلاد المشرق فصور غربته أدق تصوير ونقلت أبياته معاناته نقلاً دقيقاً حيث يقول بعد أن اجتاز بحلب:[٢]

أين أقصى الغرب من أرض حلب ... أملٌ في الغرب موصول التعبْ
حن من شوق إلى أوطانه ... من جفاه صبره لما اغتربْ
جال في الأرض لجاجاً حائراً ... بين شوقٍ وعناء ونصب

وبعد أن يجري الموازنة غير المتكافئة بين وطنه الذي استودع فيه ذكرياته وبين الأرض التي كتب الله عليه أن يحل فيها، يلخص محنته فيقول:

يا أحباي اسمعوا بعض الذي ... يتلقاه الطريد المغترب
وليكن زجراً لكم عن غربةٍ ... يرجع الرأس لديها كالذنب
ولئن قاسيت ما قاسيته ... فبما أبصر لحظي من عجب

وتوضح أبيات أخرى آلامه وأحزانه العميقة حين يذكر تغير حاله وطيب مقامه بجوار مجاهد العامري، بعد تلك الرحلة في بلاد المشرق:[٣]

ولاقيت من دهري وصرف خطوبه ... كما جرت النكباء في معطف الغصن
فلا تسألوني عن فراق جهنم ... ولكن سلوني عن دخولي إلى عدن

---

١ الجذوة، ٢٥٦. الذخيرة، ١٣٠/٢/١.
٢ المغرب، ٣١/٢. النفح، ٩٥/٢.
٣ النفح، ٩٦/٢.

ومنها. ولعلها أقوى عوامل الغربة والحنين. الحروب المستعرة بين المسلمين والأسبان وقد اتقدت جذوتها، بعد سقوط طليطلة (٤٧٨هـ) كبرى حواضر الأندلس على نحو ما بسطنا الحديث فيه في حين اتسق بنا المقال في موضوع رثاء المدن والممالك، وتحكي كتب التراجم صورة لاضطراب العلماء والشعراء في البلاد وضربهم في الآفاق إثر سقوط المدن ومنهم علي بن عبد الرحمن الخزرجي، الذي برع في الفقه والطب فلما استولى القشتاليون على طليطلة سنة ٤٧٨هـ غادرها وتجول في مختلف ربوع الأندلس ونزل بطليوس ثم إشبيلية ثم قرطبة وبها توفي سنة ٤٩٩هـ،[١] والشعور بالغربة خطوة تالية لسقوط المدينة، والشاعر يستشعر هذا المعنى سيانّ إن غادرها أو أقام فيها لأنه في الحالين مدركه ضيم الأسبان وجورهم وأذاهم... فحين يبقى تحت سلطانهم نجده يعيش غربة نفسية تتلاشى معها قيم الزمان والمكان.. فإن هو نزح عنها اجتر ذكرياته العربقة منها..

ففي نكبته بطليطلة يقول أبو المعالي الإشبيلي في حالة من الذهول والاستغراب مما آل إليه حاله:[٢]

أنا في الغربة أبكي ... ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجي ... من بلادي بمصيب
عجباً لي ولتركي ... وطناً فيه حبيبي

وفي نكبته ببلنسية يقول ابن خفاجة مثلها، لكنها تأتي قطعاً من كبده ومزعاً من قلبه حيث يبث همومه ولواعجه فتتسق قصيدته في ثلاثة عشر بيتاً ولأهمية القصيدة آثرنا إيراد أكثرها:[٣]

بين شقر وملتقى نهريها ... حيث ألقت بنا الأماني عصاها
ويغني المكاء في شاطئيها ... يستخف النُّهى فحلّت حباها
عيشة أقبلت يُشهى جناها ... وارفٌ ظلها لذيذ كراها
ثم ولت كأنها لم تكد تلبث ... إلا عشيّة أو ضحاها
آه من غربةٍ ترقرق بثّا ... آه من رحلة تطول نواها
آه من فرقة لغير تلاقٍ ... آه من دار لا يجيب صداها
لست أدري ومدمع المزن رطبٌ ... أبكاها صبابةً أم سقاها

وواضح أن الشاعر في أبياته جمع بين الصوت والصورة الثابتة والأخرى المتحركة، صوت المكّاء ووارف الظلال، ولذيذ الكرى، وتفاعلهم مع الطبيعة وحركتهم مع غصونها في بطاحها ورباها.. ودموع المزن تبكيها صبابة وربما تسقيها، ولا يملك في آخر أبياته إلا أسبال الدموع والاسترسال في البكاء:

---

١ الذيل والتكملة، ٥/١/٢٥٠.
٢ النفح، ٤/١١٣.
٣ ديوانه، رقم ٣٠٣.

فتعالى يا عين نبك عليها　　من حياة إن كان يغني بكاها
وشباب قد فات إلا تناسيه　　ونفس لم يبق إلا شجاها
ما لعيني تبكي عليها وقلبي　　يتمنى سوادها لو فداها

وأما لغة ابن خفاجة فقد جاءت ضرباً من السلاسة والرقة، وتتردد في معجمه ألفاظ "الغربة" و"الفرقة" كما تتردد ألفاظ البكاء في قصيدته بصيغ متعددة، في أربعة مواضع "أبكاها، نبك، بكاها، نبكي" ويعطف عليها لفظتين أخريين: "الندب والشجى"، ولم يكتف حتى صعد الزفرات وردد الآهات خمس مرات، واحدة مفردة، وأربعاً مجتمعة في بيتين على سبيل (رد العجز على الصدر) كما يلاحظ اقتباسه من القرآن الكريم اقتباساً مباشراً، وهو ما يتورع عنه شعراء الأندلس في أكثر اقتباساتهم، في قوله تعالى (النازعات: ٤٦): ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾.

وابن خفاجة شاعر الطبيعة غير مدافع ولا منازع. كما نعته الكريم. يبدع ما شاء له الإبداع ويحلق ما شاء له التحليق في قصيدته المتقدمة آنفاً، حيث جاءت تعج بالعواطف وتضج المشاعر إلى موطنه الذي شحط النوى به، وباعدت محنة دخول الغزاة إليه، بينهما فأصبحت القصيدة فيضاً من المشاعر التي. ازدحمت فيها صور الذكريات في مخيلته، حتى أننا لا نملك إلا الاستسلام لآهاته التي جاءت نفثة مصدور ولوعة مفجوع بأعز ما يملك، وقد اختار لتحقيق الانسجام والموسيقى في الأبيات، الهاء روياً وجعل الردف والوصل حرف المد الألف.

وفي ديوانه قصائد أخرى في هذا الاتجاه،[1] ولم يكن وفاء أبي المطرف بن عميرة شاعر بلنسية. في عصر الموحدين. أقل من وفاء شاعرها ابن خفاجة في عصر الطوائف والمرابطين، وإذا كنا قد حرمنا ديوان هذا الشاعر فإن فيما بين أيدينا من أشعاره ما يجلو لنا هذه الصورة فمن ذلك أبيات احتفظ بها الحميري في روضه حيث يخاطب الشاعر جزيرة شقر التي كانت إحدى مدن بلنسية والتي أصابها ما أصابها فيقول:[2]

كفى حزناً نأي عن الأهل بعدما　　نأينا عن الأوطان فهي بلاقع
نوى غربة حتى بمنزل غربة　　لقد صنع البين الذي هو صانع
وكيف بشقر أو بزرقة مائه　　وفيه لشقر أو لزرق شوارع

ويقول في الأخرى:[3]

وعاد قلبي من شوق أندلس　　عيدُ أسى فته وما فتر
فأين منا منازل عصفت　　ريح علها من العدا صرصر
ودون شقر ودون زرقته　　أزرق يحكي قناه أو أشقر

---

١ ديوانه، ق ٧٨. وتنظر ق ٦٥، و ق ٢٧٦.
٢ الروض المعطار، ص ٣٥٠.
٣ نفسه، ص ٣٥٠.

وممن تركت نكبة بلنسية آثارها عليه أبو عيسى بن لبون وكان من جملة أصحاب القادر يحيى بن ذي النون حيث رأس بمربيطر من أعمال بلنسية فلما تغلب السيد الكمبيطور على بلنسية تخلى عنها لأبي مروان بن رزين ثم بعد ذلك ضرب في الأرض لخيبة أمله فقال في ذلك:[1]

ذروني أجب شرق البلاد وغربها ... لأشفي نفسي أو أموت بدائي
فلست ككلب السوء يرضيه مربض ... وعظم، ولكني عقاب سماء
وكنت إذا ما بلدةٌ لي تنكرت ... شددت إلى أخرى مطي إبائي
وسرت ولا ألوي على متعذر ... وصممت لا أصغي إلى النصحاء

وقال من قصيدة أخرى:[2]

خليلي ما بالي على صدق عزمتي ... أرى من زماني ونية أو تعذرا
ووالله ما أدري لأي جريمة ... تجنى، ولا عن أي ذنب تغيرا
لئن شان تمزيق الزمان لدولتي ... لقد رد عن جهل كثير وبصرا

فكان من أثر ذلك أن انعطف ابن لبون عن الدنيا وأعرض وصار إلى الزهد فيها واعتزل الناس وتقترن قصائد الغربة والحنين بالحروب الدائرة بين المسلمين والأسبان على نحو ما نجد في قصيدة لابن الجنان يشتاق فيها إلى مرسية التي أدى سقوطها إلى نزوح الشاعر عنها فصار يستذكر أيام الصبا والشباب، والغربة النفسية تركت آثاراً عميقة الأغوار في نفس الشاعر:[3]

ولم أنتفع بالعيش بعد فراقكم ... وإن كنت قد هنيت بالعيشة الرغد
فما ساغ شرب في البعاد ولا حلا ... ولو أنه التسنيم يمزج بالشهد
فداءٌ لأيام التداني وطيبها ... زماني، وإن قل الزمان، لما أفدي
فقدت بفقديها التأنس كله ... وأعجب شيء إن سلمت من الفقد
فقل: كيف صبري واحتمالي ودونما ... أقاسيه ما هد القوى أيّما هدِّ

ويحفظ ديوان الشعر الأندلسي صوراً أخرى من دواعي التغرب وأسباباً مختلفة. فضلاً عما تقدم. فقد يرحل الشاعر حين تضيق سبل العيش فمن ذلك ما تصوره لنا أبيات قاضي المرية أبي الحسن مختار بن عبد الرحمن الرعيني (ت٤٣٥هـ) حين يزمع على العودة إلى موطنه فيخاطب بني حمود في قرطبة ويقول:[4]

ألا فأذنوا لي بالسراح فإنها ... نهاية مطلوبي وفيه عذاب
فإني قد خلفت في أفق موطني ... فراخاً هواهم ليس عنه مناب

ولبعض الشعراء أبيات خاطب فيها الملك الكامل بعد رحيله إلى بيت الله الحرام

---

١ القلائد، ١١٥. الحلة السيراء، ١٦٨/٢. وتنظر الخريدة، ٣٧٥/٣.
٢ القلائد، ١١٤. الحلة السيراء، ١٦٨/٢. الخريدة، ٣٧٨/٣.
٣ ديوانه، ق ١١.
٤ المغرب، ٢/ ٢٠٧.

واشتياقه إلى وطنه فيقول:[1]

لأن صدني البحر عن موطني ... وعيني بأشواقها زاهرة
فقد زخرف لي مكة ... بأنوار كعبته الزاهرة

ملامحه واتجاهاته:

وإذا كنا قد وقفنا في الصفحات السابقة على دواعي الغربة والحنين فلنا أن نتوقف عند أبرز ملامح هذا الاتجاه وأبرز معانيه، ونستطيع أن نشخص اتجاهين مختلفين في هذا الموضوع يمثلان طبيعة الحياة في الأندلس منذ الفتح حتى جلاء المسلمين عنها.

الاتجاه الأول يمثل المرحلة الأولى الشعراء في وطنهم الجديد بالأندلس حيث اقترنت ذكرياتهم بمدنهم وأوطانهم التي غادروها بعد فتح الأندلس، فكانت معاني الغربة والحنين إلى بلاد المشرق، وتمثل لنا أشعار عبد الرحمن الداخل وشعراء عصره وقد تقدمت أبياته في موضعها، هذا الاتجاه.

أما **الاتجاه الثاني** فيمثل الشاعر الأندلسي الذي نشأ فيها وترعرع على أرضها فتعلق قلبه بحبها ثم دعته ظروف قاهرة ودواع تقدم الحديث فيها سالفاً، إلى الرحلة عنها وتأتي هذه الرحلة في ضربين يتمثل أولهما في رحلة الشاعر إلى بلاد المشرق والثاني فتمثله رحلة الشاعر من مدينته إلى مدن أندلسية أخرى.

ولعل من أقدم النصوص الشعرية الأبيات التي نظمها عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨) حيث كتب بها إلى أهله سنة ٢١٠ هـ وفيها يقول:[2]

أحب بلاد الغرب والغرب موطني ... ألا كل غربي إلى حبيب
ويا كبداً عادت زماناً كأنما ... يلدغها بالكاويات طبيب
بليت وأبلاني اغترابي ونأيه ... وطول مقامي بالحجاز أجوب
فما الداء إلا أن تكون بغربة ... وحسبك داء أن يقال غريب
فيا ليت شعري هل أبيتن ليلةً ... بأكناف نهر الثلج حين يصوب
وحولي أصحابي وبنتي وأمها ... ومعشر أهلي والرؤوف مجيب

وأبيات ابن الفرضي التي تقدمت بنا سالفاً هي الأخرى تمثل هذا الاتجاه.

وقصائد الشعراء الدخلاء على الأندلس أمثال ابن حمديس الصقلي وابن شرف القيرواني وأبو الحسن الحصري القيرواني وأمثالهم تحمل هذا الطابع ولكن بصورة معكوسة نجدها مضمخة بمعاني الغربة والشوق والحنين إلى أوطانهم بعد أن حل بها ما حل بمدن الأندلس فيما بعد فقد غادر ابن شرف القيروان بعد الفتنة التي حلت بها

---

١ النفح، ٣٢٦/٤.
٢ الإحاطة، ٥٥١/٣.

ولم يزل يحتفظ بذكرياته العبقة عنها وقلبه يصطلي بنيران الصبابة على نحو ما يقول:[1]

يـا قيـروان وددت أنـي طـائر ... فـأراك رؤيـة باحـث متأمـل
آهـاً وأيـة آهـة تشـفي جـوى ... قلـب بنيـران الصـبابة مصـطلي
أبـدت مفـاتيح الخطـوب عجائبـاً ... كانـت كـوامن تحـت غيـب مقفـل
زعموا ابن آوى فيك يعوي والصدى ... بـذراك يصـرخ كـالحزين المثكـل

ويقول من أخرى يصف فيها آخر الصور التي شخصت في مخيلته قبل رحيله وهي طويلة قطف ابن بسام عيونها:[2]

آه للقيروان أنة شجوٍ ... عن فؤادٍ بجاحم الحزن يصلى
حين عادت به الديار قبوراً ... بل أقول الديار منهن أخلى
بعد يومٍ كأنما حُشِر الخل ... ق حفاة به عواري رجلى
ولهم زحمةٌ هنالك تحكي ... زحمة الحشر والصحائف تتلى
وعجيج وضجةٌ كضجيج الـ ... ـخلقِ يبكون والسرائُر تبلى
ليت شعري هل عودة لي في الغيـ ... ـب إلى ما أطال شجوي أم لا؟

وفي ديوان ابن حمديس قصائد كثيرة يتشوق فيها إلى صقلية مسقط رأسه ومرتع شبابه وكانت تلك القصائد مسلاة له عن النكبات التي كان يسمع أخبارها وهو في الأندلس ويطيب بها قروح نفسه وآلامها:[3]

ذكـرتُ صـقليةً والأسـى ... يُهـيِّج للـنفس تـذكارها
ومنزلـةً للتصـابي خلـت ... وكـان بنـو الظـرف عمارهـا
فـإن كنـتُ أخرجـت مـن منـةٍ ... فـإني أحـدث أخبارهـا
ولـولا ملوحـةُ مـاء البكـا ... حسـبت دمـوعي أنهارهـا

ويتمنى لو يتاح له أن يلقي نظرة على وطنه ويمتع ناظريه بصعيده وجمال ربوعه ولكن خضوعه للعدو وسيطرة النورمانيين عليه يحول دون تحقيق ذلك الأمل إلى الأبد:[4]

ولو أن أرضي حرة لأتيتها ... بعزم يعد السير ضربة لازب
ولكن أرضي كيف لي بفكاكها ... من الأسر في أيدي العلوج الغواصب
أمثلها في خاطري كل ساعة ... وأمري لها مطر الدموع السواكب

وتبقى صورة الوطن لا تبارح ذاكرته حيثما ذهب وأينما اتجه ويجد فيما يحيط به ما يذكره بهذا الوطن فيخاطب اللينوفر فيقول:[5]

هو ابن بلادي كاغترابي اغترابه ... كلانا عن الأوطان أزعجه الدهر

---

١ الذخيرة، ٤/١/٢٣٣.
٢ الذخيرة، ٤/١/٢٢٧ . ٢٢٩.
٣ ديوانه، ق ١١٠.
٤ ديوانه، ق ٢٧.
٥ نفسه، ق ١١٣.

وفي البيت ما فيه من عمق الأثر وبعد الغور لشعور الشاعر بالغربة والحنين على الرغم مما رآه إحسان عباس من أن وقفته عند معنى الغربة أمام اللينوفر ليست إلا وقفة عابرة.[1]

وأما الضرب الثاني الذي أشرنا إليه فيتجلى في شعر عدد كبير من شعراء الأندلس، فأبيات ابن زيدون القافية التي عرضنا لها في موضع سابق يوجهها من الزهراء إلى ولادة وهي بقرطبة، فيها نبرة الحزن والتذكر، وقصيدته الحائية التي مطلعها:[2]

خليلي لا فطر يدوم ولا أضحى فما حال من أمسى مشوقاً كما أضحى

يوجهها من بطليوس إلى قرطبة كذلك، ومن بطليوس كذلك يشتاق إلى وطنه بعد أن ينتقل بين بلنسية وطرطوشة والحنين يمزق قلبه شغفاً بوطنه وتشوقاً إلى هواه القديم:

يا دمع صُب ما شئت أن تصوبا
قد ملأ الشوق الحشا ندوبا
إذا أتيت الوطن الحبيبا
فحي منه ما رأى الجنوبا
حيث ألفت الرشأ الربيبا

ولابن عمار بعد أن نفاه المعتضد إلى سرقسطة قصيدة طويلة فيها معاني الغربة والشوق إلى ذكرياته في إشبيلية وشلب:[3]

ألا قاتل الله الجياد فإنها نأت بي عن أرض العلى والمكارم
أشلب ولا تنساب عبرة متفق وحمص ولا تعتاد زفرة نادم
كساها الحيا برد الشباب فإنها بلاد بها عق الشباب تمائمي
ذكرت بها عهد الصبا فكأنما قدحت بنار الشوق بين الحيازم

وتجلت ظاهرة الترحل بين مدن الأندلس وما اقترنت به من ذكريات تحفل بها قرائح الشعراء في عصر الطرائف فلا نكاد نرى الشاعر يستقر به المقام في مملكة من ممالك الطوائف ويطيب له المثوى مزدلفاً لأحد ملوكها يخرج ثانية إلى بلاط ملك آخر ويستشعر معاني الضياع والغربة منذ ابتعاده عن مدينته الأم على نحو ما نجد عند ابن اللبانة الأندلسي في قوله:[4]

رماني الدهر في كل النواحي فأثبت في مقاتلي النبالا
وصيرني غريباً في مكان به الغرباء تكسب والعيالا

وهو يستشعر تكالب الهموم وتزاحم الأحزان عليه من كل جانب فيقول:[5]

---

١ تاريخ الأدب الأندلسي، ٢/١٩٩.
٢ الديوان، ١٥٨ . ١٦١.
٣ محمد بن عمار، ص ٢١٠.
٤ ديوان ابن اللبانة الأندلسي، ق ٦٩.
٥ نفسه، ق ٣٣.

قد طال بي أقطع البيداء متصلاً وليس يسفر عن وجه المنى سفر
كأنما الأرض عني غير راضية فليس لي وطن فيها ولا وطر
إن الهموم مع الأعمار ماشية لا ينقضي الهم حتى ينقضي العمر

ولم يختلف ابن بقى في كثير عن اللبانة فيتجول في مدن الأندلس، ويضيق ذرعاً بها:[1]

قالوا تغربت عن أقطار أندلسٍ ومن يقيم على هون وإقلالِ

وقد اضطرب الأمر بابن السيد البطليوس كذلك على نحو ما نجده في مجموع أشعاره.[2]

معانيه:

وأما معاني شعر الغربة والحنين فقد أشار إليها عبد العزيز عتيق ومنها الشوق إلى الأوطان وتصوير تجاربهم الذاتية في ديار الغربة وملاعب الصبا وتذكر أيامهم وعهودهم السعيدة وكان بعضهم يمدح الاغتراب وأكثرهم يذمه ثم يلاحظ أن الشعراء كانوا يمزجون بين الحنين والطبيعة في صورهم الشعرية وتفضيل البقاء في الوطن مع الشظف والفاقة على الاغتراب مع الغنى والسعة، وتصوير ما لقيه بعضهم من عدم الترحيب والتقدير وبالتالي الندم على مجازفته بالاغتراب.[3]

ونجد هذا الموضوع يتصل بأكثر موضوعات الشعر الأخرى وهو حيناً يتصل بشعر الوصف حينما يصف الشاعر الطبيعة، كما نجده في شعر ابن خفاجة الأندلسي في أبياته التي تقدمت بنا سالفاً، وفي قصيدته العينية التي يقول فيها:[4]

أجبت وقد نادى الغرام فأسمعا عشية غناني الحمامُ فرجّعا
فقلت ولي دمعٌ ترقرق فانهمى يسيل وصبرٌ قد وهى فتضعضعا
ألا هل إلى أرض الجزيرة أوبةٌ فأسكن أنفاساً وأهدأ مضجعاً
وأغدو بواديها وقد نضح الندى معاطف هاتيك الربى ثم أقشعا
أغازلُ فيها للغزالة سنّةً تحط الصبا عنها من الغيم برقعا
وبات سقيط الطلِّ يضرب سرحةً ترف بواديها وينضح أجرعا
أقلب طرفي في السماء لعلّني أشيم سنا برقٍ هناك تطلعا

"فالطبيعة الأندلسية مصدر إلهام الشعراء والفيض الزاخر الذي يستمدون منه أفكارهم وموضوعاتهم فرؤية الغراب عندهم أو سماع نعيقه يعني الاستعداد للرحيل أو الغربة والتمتع بترجيع صوت الحمامة يثير فيهم الوجد والحنين، والنخلة رمز يمثل المشرق وهو ما يحرص عليه الأندلسي ويهتم بها لأنها غريبة تحاكي غربته والزهرة نبتة جميلة تتجسد فيها صور محبوبته، والريح والرعد والبرق تذكي فيه جذوة الشوق

---

١ المورد، ١٤٢/١/٧، ق ٣٤.
٢ ابن السيد البطليوس، مجلة المورد، ١٩٧٧/١/٦.
٣ الأدب العربي في الأندلس، ٢٧٤.
٤ ديوانه، ق ٧٨.